تجلّيات الفعل البيداغوجيّ في رواية صَحْوِ الكلام

د.هشام فرّوم د.محمد رضا بركاني
جامعة الطّارف

الملخّص: رواية (صَحْوُ الكَلَامِ) لصاحبها الروائي الدكتور عِيسى مُومني؛ رواية ثقافية تعليمية تندرج ضمن ما يسمّى بالرواية الجديدة؛ أخذت منهجا خاصا في البناء النصي؛ حيث تشكلت من بنية نصية داخليّة وبنية مرجعيّة خارجيّة، جعلت القراءة لا تلتزم بحرفيّة النّص، وإنّما تتحرّك على السطح والعمق، وتعتدّ بالمقدمات والنتائج، وتربط التحليل بالتركيب. وقد التزمت هذه الرواية بتكريس قيمة الوعي بالوظيفة التربوية التثقيفية؛ حيث يقُدم صاحب الرواية بوصفه مربيا وبوصف العمل الروائي عنصرا من عناصر الوعي والتثقيف.

الكلمات المفتاحية: الفعل البيداغوجي، الرمزية، الدوال المركزية، صحو الكلام،

Abstract: the novel (Awakening of Speech) by its novelist Dr. Aissa Moumni; a cultural educational novel that falls within the so-called new novel; it took a special approach in the textual construction; it consisted of an internal text structure and an external reference structure that made reading not adhering to the literal text, Surface and depth, and are familiar with the introductions and results, and connect the analysis to the installation. This novel is committed to instilling value in awareness of educational and educational function. The novelist as a educator and novelist is an element of awareness and education.

Key words: The pedagogical act, The avatar, The central functions, The clear speech.

تندرج رواية (صَحْوُ الكَلَامِ: زوايا مضيئة في حياة طالب علم وأستاذه) لصاحبها الروائي الدكتور (عِيسى مُومني) ضمن ما يسمى بالرواية الثقافية التي تختص بسرد جملة من الأفكار والعادات والسلوكيّات الخاصّة بمجتمع معين، في إطار قصة قد تكون محكيّة أو مقروءة أو متخيّلة. وقد يكون للقصة الواحدة أكثر من زاوية نظر تمثّل كلّ أو بعض منظورات شخوص القصة.

والرواية الثقافية أو السرد الثقافي هي من الآليآت التي تعين أفراد ثقافة ما لخلق معنى الحياة داخل أرومة تلك الثقافة، من أجل التعبير عن رؤية معينة أو توجه ما، ومن أجل البحث عن شرعيّة لهذه الثقافة ضمن الأطر العامة المجتمعيّة التي يعيشها الفرد.

ورواية (صَحْوُ الكَلَامِ) كما عبّر عنها صاحبها عبارة عن شهادة أستاذ على وجع أمّة؛ حيث تلمّس مواضع الألم وفهم لغزه، كما فهم القلب حين يبكي، وحين يبتسم، وحين يقسو، وحين يغفو، وحين يصحو.

وقد عرّج الروائي في خلطة مركّزة فاعلة على موضوعات كثيرة مختلفة؛ متباعدة أحيانا، وتجمعها نقاط شراكة أحيانا أخرى، متموضعة في ذاكرة الأيام الخوالي التي ارتسمت سيرة ذاتية بوجه أو بآخر؛ حيث بدا فيها التاريخي بتجليّاته وعظاته، والأمس بتمظهراته وأحاسيسه، والذّاكرة بتفاصيلها وتقاسيمها المشرقة والمحزنة أيضا.

وما ميّز هذه الرواية هو تصوير الحياة في حركيتها وحيويتها من خلال ثنائية (أستاذ - طالب علم)؛ بحيث يبحث صاحبها عن الأستاذ المربي المثالي والنموذجي الّذي يسعى دوما إلى تنمية الحس الوطني والثقافي والديني والفني عند طالبه، ويبحث أيضا عن طالب العلم؛ صاحب الرؤية المهذبة لعالم الواقع، والّذي يبحث دوما عن متنفس لطموح مفتوح، بأفكار ممنهجة، وذوق فني راق، وحس أدبي متميز. وكأن بالروائي عيسى

مومني يبحث عن نفسه بعدما حكمت الأقدار أن ينتقل للتدريس بالجامعة التي تختلف بشكل كبير في آليات التعليم عما عهده في مرحلة التعليم الثانوي؛ حيث كانت العلاقة بين الأستاذ وطالبه تحكمها رؤية شاملة للحياة في كلّ تفاصيلها، فهو المعلم والمربي والناصح والأب والصديق والمرافق.

إنّ رواية (صحو الكلام) تحمل بعدا ثقافيا ووجدانيا، وعمقا فلسفيا وفكريا، واتساعا في أفقها ومداها، بين بنية نصيّة داخلية وبنية مرجعيّة خارجيّة تحكمها شواهد مكانية وزمانية، ممّا يجعل قراءتها لا تلتزم بحرفية النّص وإنّما تبحث بين ثناياه وفواصله وأحكامه، وتهتم بتقليب كلّ قضاياه وأفكاره ومضامينه اعتمادا على مكوّناته.

وقد التزمت الرواية بعدا بيداغوجيا؛ تجلّى من خلال العنوان الرئيسي(الصحو)، ومن خلال العناوين الفرعية التي صيغت وفق استراتيجية بيداغوجية تقوم على المقارنة بين الأجداد والأحفاد، الأمجاد والمآسي،... لتصبّ في عمليّة استنهاض الجيل والأمة ومحاولة بعث الإنسان الجزائري واستنباته في جذوره، والتماهي بين التاريخ والحاضر المعيش، من خلال استرجاع الماضي وإحياءه، لا القطيعة معه، وهو ما يفسّر حضور الماضي بشكل متكرر في النسيج الروائي، واستدعاء التاريخ العربي الأمازيغي الإسلامي، كالاستشهاد بالدولة الجزائرية ما بعد الموحّدين، والحديث عن جمعية العلماء المسلمين، وذكر الأحزاب السياسية التي تشكلت قبل الثورة وأثناءها.

لقد قدمت رواية (صحو الكلام) من خلال أطروحتها البيداغوجية وسائل وأنماط تفكير جديدة لاستحداث وعي بإشكاليّة المثاقفة وإدراك الواقع. على هذا الأساس تكون إشكاليتنا الرئيسة في المقال: هل هذه الجوانب البيداغوجية التي تطرحها الرواية الثقافية تقوم على مبدأ الاسترجاع وإحياء التراث وربطه بالحاضر؟ أم أنّها تقوم على القطيعة والتحديث المتناهي؟

أولا: رواية (صحو الكلام) نصّ مثقف وفرجة معرفيّة:

أشار عديد المنظرين في مجال السرد إلى كون الرواية خصوصا منها الثقافية تمتص خطابات متنوعة، بما فيها تلك الّتي توصف بأنّها نصف أدبيّة، ما جعل السرد ينفتح على غيره من الخطابات الّتي جلبت معها أشكالا معرفية مختلفة. ولا يعني هذا أنّ السرد يتحوّل إلى خطاب نظريّ وإنّما كونه يمتلك مثل بقية الفنون اللغوية القدرة على التقاطع مع المعرفة من خلال التعديل في نماذجها والعدول عن أساليبها.

إنّ المعرفة التي تصدّرها الرواية لا تحيل بالضرورة إلى نظريّات أو مدارس أو كتب، وإنّما هي جملة تصوّرات أو إيديولوجيات تؤشّر لما يريد الروائي تصويره وتجسيده من خلال شخوص تخييلية، وعلى هذا فالتجربة الروائيّة ليست هي الإنتاج الروائي في حدّ ذاته، بل هي التصوّر الإبداعي الكامن في ذلك العمل، وهو التصوّر الّذي يجعل من النصّ فرجة معرفية لا تنتهي عند حدّ، أو تحوّل المعرفة إلى وضعيات إنسانيّة ترقى على الفردي وتتجاوز اللحظة العرضية الزائلة لكي تلج الكوني والعام.[1] هنا تبدو الكتابة فينومينولوجيا متقطعة، تستدعي الحضور في كلّ لحظة من لحظات الخطاب، وتعيد اكتشاف الّذات عبر مجهر التاريخ، وبوصلة الذّاكرة الّتي ترتسم في لوحتها صورة الإنسان الجزائري، وهو يمتد في الكينونة والزمان عميقا، غير أنّه يمتد ويوغل وجودا لا كتلة من الممارسات والآثار؛ إنّه يدرك انتماءه للأمة أو المعنى.[2]

هذا الامتداد يطرح فلسفة البحث عن الذّات في ركام من التساؤلات: أين، ومتى، وكيف، ولماذا؟

حيث تكشف فيه (أين) المكان هو جغرافية الأمة الافتراضي، وأنّ البطل الإشكالي لا يعيش بمعزل عن عالمه، مما يجعل الظروف التي تحيط به لا تُخلق حسب هواه حتى يحلم بحل متاعبه ومشاكله طوع إرادة وفق هواه؛ فالحوادث كلّها عنده يجب أن تُدرس.

وتأتي (متى)، لتجعل الزمان يمتد امتداد الماضي والحاضر. وتأتي (كيف)، مفتاح من مفاتيح الحقيقة، ومفاتيح النفس في معرفة الحقيقة. أمّا (لماذا) فكما هي تأخذ إعرابها على أوجه، فهي تفتح للكلام ليكون حمّال أوجه.

والجميع بين:/ أين، ومتى، وكيف، ولماذا، يستحق وحده أن يؤخذ بعين الاعتبار في المشاهدات، وتتبع المسارات، أو ما توارى من الظواهر، ليظهر النّص في كامل إيهابه اللغوي؛ تلفّظ الخطاب فيه يجري بين ضميري الحضور (أنا ونحن)، وتجري فيه الأحداث عيانا وشهادة، وتلفّظ السرد يجري بضمير الغيبة، والرؤية فيه متوارية وراء التاريخ.[3]

يبحث هذا النّص السردي واقعا عاصفا في إطار علاقات ترتدي لبوس إعلاميّ حافل بشعارات العصر وحرائق المعرفة التي تصارع الوجود، من خلال سؤال الضّرورة أو الهويّة، والتّمثيل الفكريّ للمجتمع. من خلال محاولة استعادة الذّاكرة بعدما تمّ تفريغها من ثقافتها وهويّتها.

يحاول الروائي (عيسى مومني) أن يتعاطى بدّقة عاليّة مع عالم يغيّر جلده كلّ لحظة، ويستحدث منظومات من المعارف والآليّات والوسائط المذهلة كعمليّة استشراف للآفاق والمدى، وهو في ذلك يسلك منهجا موسوعيّا وشموليّا في طرح الأفكار ومعالجتها.

وهذا ما عبّر عنه سعيد بنكراد في قوله: "الرواية معرفة، ولكنّها معرفة لا توضع بشكل مباشر على لسان الشخصيات، ولا يتم تداولها من خلال الحوارات أو تعليقات السّارد أو أصوات أخرى. إنّها صياغة الوضعيّات ونمط تصوّرها، إنّها تجسيد فضائي وزماني للمعنى. فالمعنى لا يوضع عاريا على شفاه الكائنات التخييلية، ولكنّه يولد من خلال ما يؤثث الكون الّذي تتحرك داخله هذه الكائنات؛ ولهذا الشبب فإنّ المعرفة لا تلج عالم الرواية على شكل قوالب وأسماء وإحالات على كتب أو نظريّات، ولكنّها تتسرّب من خلال التعليق على الحدث وتصوير الشيء وطريقة رؤيته ووصفه وتداوله"[4].

تقدّم رواية (صحو الكلام) قراءة معرفية واعية لكلّ مكونات الكون بالاعتماد على البراهين في صياغة البحث وطرح الأفكار، والإحاطة الشاملة بجوانب الموضوع حتّى تصبح المستند إليها في حجّته؛ حيث جعل من جوهر الفكر الدّليل الواضح في عمليّة الإبداع، وتوسّع المعارف أعطى أبعادًا مختلفة في صياغة المذهب الفكري من خلال جعل المعلومات الطريق المرشد إلى معالم الاهتداء؛ وصناعة الواقع بين الأنا المغيّب والآخر المستفيد كما عبّر عنه الروائي. وهذا ما نلمحه في هذا النصّ:

"وحديث البطل الإشكالي مخزونه أفكار، وصورة الأشخاص ليست صورا باهتة للنماذج المثالية، وإنّما هي شخصيات مملوءة بالأفكار، ومسكونة بالأفكار، ولم تخن الأفكار، وتصارع من أجل الأفكار. ولحظة إشراق هذه الأفكار، خلاصة تجارب أشخاص أنجبهم اللّيل الحالك، وخلّد كلماتهم صدق القول، ومثّلت أفكارهم في

العالم الثقافي، الأفكار الّتي تعبّر عن نفسها مباشرة في نشاطات الإنسان المعاصر، فتوازنت كلماتهم مع المقولة الرّائعة (يا سارية الجبل)"[5].

ثانيا- رمزيّة العنوان في رواية (صَحْوُ الكَلَامِ):

يعدّ العنوان من أهمّ عناصر النّص الموازي وملحقاته الدّاخلية؛ نظرا لكونه مدخلا أساسيا في قراءة الإبداع الأدبي والتخييلي بصفة عامة، والروائي بصفة خاصة. وهو حسب رأي بعض النقاد، مقطع لغويّ أقلّ من الجملة يمثّل نصا أو عملا فنيا، يمكن النّظر إليه من زاويتين: (أ) في السياق، (ب) خارج السياق.[6]

في السياق؛ إذا نحن جعلناه مدخلا أساسيا إلى متن النص، وقرينة موجهة تحيل إلى مضمونه ومحتواه. أمّا خارج السياق، فتمنح القارئ حريّة في التأويل والقراءة، ومجالا أرحب في التعاطي مع العنوان باعتباره نصا موازيا.

ويحتل العنوان موقعا مهما ومتميزا في بنية الخطاب الأدبي؛ لأنه المسار الأول الّذي يواجه المتلقي وهو يقرأ النّص؛ لذا لابدّ للمتلقّي أن يعطي أهميّة وأولويّة لقراءة العنوان قبل أن يدخل في ميدان المتن النّصي، كما لابدّ للمتلقي أن يعرف أنّ العنوان يرتبط بعلاقة وثيقة بالمتن النّصي وهو مفتاح من مفاتيحه الرئيسة، ولا يمكن فهم النّص فهما صحيحا ومتكاملا من دون الانتباه إلى أهميّة العنوان وتفسير دلالته.[7]

على هذا الأساس فإن العمل الأدبي يعدّ "بنية معادلية كبرى: طرفاها العنوان: النص، وربما شكل بنية رحمية تولد معظم دلالات النص"[8].

والعنوان بكفاءته السيمائية قادر على تمثّل أبعاد ووظائف (ثقافية، إرشادية، إشهارية) في آن معا، كما أنّه قادر على الانسياب إلى ثنايا النّص فاضحا نواياه ومعلنا عنها فور تلقّيه؛ وبهذا يكون العنوان؛ "لا يحكي النّص، بل على العكس إنّه يمظهر ويعلن قصديته"[9].

إنّ العنوان ليس عادة كتابية أو تقليدا متوارثا، بل هو استراتيجية كتابية تعنى برصد العلاقة بين النص والعنوان من حيث الحمولة الدلالية والعلاقات الإيحائيّة؛ لذلك يمكننا اليوم الحديث عن شعرية العنوان؛ وهي شعرية ربّما بدت موازية لشعرية النّص من حيث ما يقدّمه العنوان من دور فعال من خلال وظائفه المتنوعة في تجسيد شعرية النّص وتكثيفها أو الإحالة إليها؛ هذا ما نحاوله تجليته في قراءتنا لما يحمل العنوان الرئيس والعناوين الفرعية في رواية (صحو الكلام).

1- العنوان الرئيس:

فلسفة الصّحو في الرواية تؤول إلى قيمة الوعي بالوظيفة التربوية التثقيفية، وقدرة هذا الوعي على فهم الواقع والتفاعل معه، وهذا الّذي جرى بين الأستاذ وطالبه، فلم تتوقف العلاقة عند مجرد تلقين الدروس وتبليغ المعارف، بل امتدت إلى مستويات أعمق وأفق أوسع، وهنا يمكن استحضار الجدال الّذي وقع بين الأستاذ "أبو أحمد" والطّالب "إلياس" باعتباره نوع من الصحو يقدم لنا وسيلة ونمط تفكير جديد لاستحداث وعي بإشكالية المثاقفة وإدراك الواقع على وجه صحيح.

ولنتأمل هذا الحوار:

"وقبل أن ينطق "إلياس" بكلمة قال له أستاذه: هذا زمن الوثوب، وليس زمن الوصول، فما ذاك سوى محصّلة لإرادة نفذت...

ثمّ قال: إنّ الطفيليّات في البستان تجتث ولا تستبقي، وهناك نزعات بشرية لها خصائص هذه النبتات، ... تجعل من كلّ شيء شهوات مطاعة وأرجاس مقزّزة،..

قال إلياس: لقد فهمت.

قال له أستاذه: وما فهمت؟

إلياس: فهمت أنّ النظرة السطحيّة هي الّتي تقف عند حدّ النّعي على النّاس، والحكم على أعمالهم،... ثمّ لا يساهم المرء بعد ذلك بجهد ما في عمل عظيم"[10].

أدرك الطّالب "إلياس" بسرعة بديهة وباستجابة سريعة المغزى الّذي يريده أستاذه؛ وهي أنّ الأحوال تغيّرت، والأفكار تشوّشت، والمبادئ تشوّهت. وأنّ كثيرا من المعارف التي يتداولها النّاس في حاجة إلى فتح نقاش واسع حولها، ابتداء من المعارف المدرسيّة، ومحاضرات الجامعة، وخطب الجمعة، ونشرات الأخبار، وكلّ ما يُتداول في الساحة العلمية والثقافية والإعلامية، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ اقتحام هكذا مسائل دون التسلّح بالآليّات الكفيلة بتحقيق الهدف وبلوغ المراد هو نوع من الدجل الّذي يضرّ أكثر مما ينفع.

ولهذا اختتم الروائي هذا الحوار بتساؤل مهمّ: من يقرّر هذا حقّ وهذا باطل؟ ومن يقرّر هذا غيم وهذا صحو؟ ثمّ لا يلبث الكاتب أن يحاول الإجابة عن هذا التساؤل من خلال استحضار تاريخيّ بطرح أنموذج عن الصحوة لا طالما تغنى به المجتمع العربي والإسلامي والدولي؛ إنّه الشعب الجزائريّ زمن الاستدمار الفرنسيّ؛ هذا الشّعب الّذي قدّم للعالم رجالا ونساء ذوي قامات عالية، استطاعوا بما وهبهم الله من قدرات فريدة الكفاح على جبهات عديدة؛ أعادوا له حريته، وحافظوا على ثقافته ومبادئه وعاداته، ونشروا التعليم العربي الإسلامي على نطاق واسع.

وكأنّ بالكاتب يقول لـ "إلياس" على لسان أستاذه: إنّ الصحوة لا تأتي من فراغ وإنّما تصنعها الأيادي الخيرة الممتلئة بالفكر والثقافة والعلم، والمحبّة للآخر، والمفعمة بالحيوية والنشاط، والهادفة إلى تقديم البديل المناسب في الوقت المناسب. إذن هي دعوة من "الأستاذ" إلى "إلياس" وزملائه إلى استنهاض الوعي شعارها: تعلّم كما تعلّمنا. يقول الأستاذ هنا: هكذا أريدكم: العلم بين أهله رحم متّصلة، كما قال الإمام الشّافعيّ.

2- العناوين الفرعيّة:

لا يقصد بالعنوان فقط العنوان الرئيس أو المركزي؛ إذ هناك ما يسمى بالعنوان الفرعي؛ أو كما نعته بعض العلماء بالعنوان الثاني أو الثانوي مقارنة بالعنوان الحقيقي؛ وهو إشارة لغوية تحيل بدقة إلى موضوع النّص ومضمونه؛ وتعمل على الحدّ من شساعة أفق التصوّر الّتي يخلقها العنوان الفرعي.

أ- أحفاد وأجداد:

يستدعي هذا العنوان نوعا من المقارنة بين واقع الأجداد في كلّ تفاصيله الذي لا نعلم منه إلاّ القليل، وواقع الأحفاد في كلّ تفاصيله الّذي يغلب عليه الانحطاط والرجعيّة والذّل والهوان في عديد المستويات.

يرى أستاذ الطّالب إلياس أنّ ما قدّمه الأجداد هو مدعاة للفخر والتباهي، وهو صورة مشرقة، لابدّ من جعلها نبراسا تقتدي بها الناشئة من الأحفاد إذا هم أرادوا تلمّس حالة الفخر والتباهي والانتماء التي عاشها الأجداد. هنا يبادر الطّالب "إلياس" بطرح عدد من الأسئلة يريد من خلالها تسليط الضوء على نقاط مبهمة شكلت بالنسبة له ولزملائه فراغا فكريا أدّى إلى الاعتقاد الخطأ في كثير من القضايا نتيجة الانفصال والانقطاع الحاصل بين واقع حالهم وبين تراثهم الزاخر بعديد التجارب التي لو تمت قراءتها بطريقة علمية دقيقة تكون سببا في حلّ عديد الأزمات التي يعيشها الأحفاد.

يقول إلياس: حدّثنا يا أستاذ عن أسوأ يوم لهذه الأمّة في تاريخها الحديث؟[11]

قال الأستاذ: يا ولدي إنّه يوم اعتراف هيئة الأمم المتحدة بإسرائيل. وراح الأستاذ يستشهد بعدد من الأحداث والأقوال التي تؤكّد ما قاله.

يتبعه الطالب "إلياس" بسؤال آخر:

قال إلياس: سؤال آخر يا أستاذي حيّرني.

قال الأستاذ: وما هو؟

قال إلياس: ومتى تقوم دولة فلسطين؟

الأستاذ: رُوي عن بشر الحافي أنّه سار معه رجل في الطريق. فعطش صاحبه. فقال له: نشرب من هذه البئر؟ فقال: اصبر إلى البئر الأخرى. ... فمازال يعلّله. ثمّ التفت إليه فقال هكذا تنقطع الدّنيا.[12]

ومع توالي أجوبة الأستاذ توالت أسئلة الطالب "إلياس" حتى في بعض الأحيان دون استئذان على غير عادته ربّما قيمة القضايا التي تُطرح في النقاش لها من الأهميّة ما جعلته يستغني دون شعور منه عن بعض أبجديات التعامل والتعاطي مع أستاذه، ولكن هذا الأخير لم يبد امتعاضا من سلوك طالبه بل واصل بكلّ سلاسة الإجابة عن أسئلة طلاّبه محاولا في كلّ مرّة توطيد صلتهم بتراثهم، وتغيير بعض المفاهيم الخاطئة في أذهانهم والتي اكتسبت بفعل الغزو الفكري والثقافي التي يعيشه العالم العربي والإسلامي الآن. مؤكّدا دائما على ضرورة لمّ الشمل بين ماض يحمل لإلياس وغيره من أحفاد عمر وعثمان وعلي -رضي الله عنهم- والعربي بن مهيدي وديدوش مراد وحسيبة بوعلي -رحمهم الله- حلولا لكثير من العقبات والمشاكل التي تواجههم، وبين حاضر وواقع حال لا يسرّ ولا ينبئ على الخير.

ب- حرب على العقل العربي الإسلاميّ:

نعم؛ هي حرب بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى وهذا ما قصدته الرواية؛ حرب على كلّ ما له صلة بالإسلام والعربيّة، تجلّت في بروز عدد من المفكرين حاولوا خداعنا باسم الحداثة والعلمانية، معتبرين العودة إلى الإسلام انقراضا حضاريا. وقد تسلّح هؤلاء بعدد من الشبهات والمغالطات التي راح ضحيتها الكثيرون، منهم الطّالب "إلياس" الّذي كان يعتقد أنّ غيابنا في مجال العلوم الدنيا كالرياضيات والفيزياء والفلك والطب وغيرها يرجع بالضّرورة إلى مرجعيتنا الدينية ومكتسباتنا الحضارية. حتّى جاءه الردّ من أستاذه حين قال له: هذه نصف الحقيقة، والنّصف الثّاني هو أن لا نتخلّ عن ثقافتنا، فهي إكسير الحياة للأمة والمجدّد الدائب لطاقتها الأدبيّة والماديّة.[13]

إنّ سعادة الأمة تأتي من الحفاظ على جناحيها، ولا يستقيم لها الأمر دون ذلك، وها نحن نسمع ونشاهد ما يحدث في البلاد العربيّة والإسلاميّة من تهلهل وانحطاط وتدهور على كلّ الأصعدة، سببه تخلي هذه الأمم وتنازلها عن طاقتها الأدبيّة وحضارتها بحثا عن مجد زائف لا يليق بها، و لا يمكن لها تحصيله في غياب ذاتها الثقافية والحضارية، والمحصلة فلا هي حافظت على تراثها ومعتقداتها ولا هي بلغت المجد فيما اعتقدت أنّه سبيل تفوقها ونجاتها. إنّها حقيقة أقرتها رواية "صَحْو الكلام" لا تبحث عن ذاتك في ذات أخرى، ولا تبحث عن ثقافتك في ثقافة أخرى؛ فهي أجسام غريبة لا يمكن للجسم أو الفكر قبولها أو حتّى مجرّد التعاطي معها.

ثالثا: الحوار قيمة بيداغوجية وتربوية في الرواية:

في عصر أبرز ميزاته السّرعة والتطوّر المذهل في كافّة مجالات الحياة البشريّة؛ فإنّ عمليّة الاتّصال والتّواصل وتبليغ مضامين الخطاب تقتضي أكثر من أيّ وقت مضى مسايرة هذا الرقيّ؛ لأنّها وسيلة انتشار هذا التطوّر وبلوغ مراميه بكلّ ما يحمل من سمات ماديّة ومعنويّة.

ولمّا كانت اللّغة -خاصيّة البشر- الرّكيزة الأساس والمنطلق الأسمى في عمليّة الاتّصال والتّواصل والتّبليغ لدى هذا المخلوق المكرّم؛ فإنّه مُطالب بالسّعي الحثيث لتطوير أساليب اتّصاله وتواصله وتهذيب أشكال تعبيره لتُضاهي روح العصر سُرعةً في التّبليغ، ويُسرًا في الفهم والاستيعاب، وتأثّرًا بالمضامين، وتأثيرًا في المتلقّي لهذه المضامين، وبذلك يمارس الإنسان إنسانيّته مُسجّلاً بذلك تواصلاً ينقل من خلاله ركام الحضارة الإنسانيّة بتعاقب الأجيال بأرقى وسائل التّعبير، مع الحفاظ على هويّته الحضاريّة من الذّبول والذّوبان.

ويعدّ الأسلوب الحواريّ من ضرورات الكلام في مستواه النفعيّ الّذي يتواصل به النّاس، ومن ثمّ اكتسى أهميّة وقيمة جماليّة بالغة فطن لها أهل اللغة والنقد والبلاغة، بسبب ما ينضوي عليه من مهارات تحقّق التأثير والإقناع والاستمالة.

الحوار فعالية خطابية، وهو الأصل في الكلام، ولأهميته وفوائده الكبرى في تحقيق التواصل والتفاعل وحلّ المشاكل وتدبير الاختلاف، فقد اتّخذته رواية "صَحْو الكلام" أسلوبا في الحياة للتواصل مع الآخر وحلّ المشاكل وتدبير الاختلافات. حيث اشتملت على محاورات عديدة أجراها الأستاذ مع الطالب "إلياس" ومع طلبة آخرين، وحوار الطلبة مع بعضهم.

قال: إلياس: إنّ الجماعة يريدوننا أن ننسى، ويريدون أن يرسموا لنا جديدا، مثل الانقلابيين حين يستولوا على الحكم بالقوة...

فقال له الأستاذ: هذا زمن تولّى إنّنا في زمن القرية، وهذا أيضا يفعله ابني حين يضع قناة سبايس تون يوم العيد، فأنسى وكأنّ العيد ليس عيدا... وواصل حديثه متفائلا بمستقبل أفضل للمسلمين.

ليأتيه اعتراض من طالب من آخر القاعة، يقول: إنّ عمليّة التفاؤل عندك يا أستاذ لا حدود لها. أرضنا تنتقص من أطرافها، و .. و

قال له زمليه: هذا في فلسطين.

قال إلياس: وكأنّي أرى ملامحه في كلّ مكان، ولو عدت إلى قريتك التي غادرتها منذ سنوات لم تجد لها أثرا، ...[14]

هذا حوار تعليمي أجراه الأستاذ مع طلاّبه، على غرار بقية المحاورات التي وردت في الرواية، اتسم بالطابع التوجيهي الإرشادي. وتتضمن أيضاً توجيهات لتقويم السلوك وكيفية التعامل مع الآخرين، والحثّ على التفكير وتقليب الأمور من عدة جوانب، مع العمل المتواصل. كما دعاهم إلى الاتّسام بالوسطيّة والاعتدال عند مناقشة آراء الآخرين.

إن فعالية الحوار في الرواية تتوافر على قدرة إقناعية غير محدودة استفاد منها الأستاذ انطلاقا من القواعد التي تحاول التداولية ضبطها من أجل طلب الوضوح في فهم آليات التواصل وتحسين أداء الحوار عن طريق اصطناع منطق الإقناع والإتيان بالحجة وتغيير الذهنيات وتلاقح الأفكار وترقية الشراكة الإنسانية من التدافع إلى التعاون والتكامل.

وإذا جاز الاعتقاد أنّ "الحوار" يستند إلى نماذج تنتمي إلى المجال التداولي، جاز معه أن تسلك من سبل الاستدلال ما هو أوسع وأغنى من بنيات البرهان الضيقة، كأن يعتمد "المحاور" في بناء النص الصور الاستدلالية مجتمعة إلى مضامينها أوثق اجتماع. كأن يطوي الكثير من المقدمات والنتائج، وأن يسوق الدليل على قضية بديهية أو مشهورة، كل ذلك لأنه يؤخذ بمقتضيات الحال من معارف مشتركة ومعتقدات موجهة ومطالب إخبارية وأغراض علمية.

واللباس الحواري تتحد على مستواه صحة الاستدلال بإمكانية تحصيل الأستاذ على طريقة مشروعة لإلزام المتحاور (إلياس) أو المتحاورين (إلياس وزملائه)، وهو ذلك المجموع الّذي يريد الأستاذ التأثير فيهم بواسطة حجاجه؛ أي مجموع الطلبة الذين يعرفهم بشكل دقيق؛ أحوالهم وأقدارهم ومراتبهم وهم يتحاورون معه؛ بهذا فالمستمع شريك واقعي للحوار. وهذا يتجسد بشكل أكثر دقة في مقام حوار ذاتي، حيث يتسنى للشخص أن يختار حججه بشكل موجّه ومؤثّر.

خاتمة القول:

إنّ رواية صحو الكلام لفتة فنيّة رائعة قدّم لنا من خلالها الروائي الدكتور عيسى مومني محصول تجاربه التعليمية، وجملة مكتسباته الثقافية والفكرية، في قالب إبداعي مميز، موجّها العمل لاستنهاض الجيل والأمة، وبعث الإنسان الجزائري واستنباته في جذوره، والتماهي بين التاريخ والحاضر المعيش، من خلال استرجاع الماضي وإحياءه، لا القطيعة معه.

المراجع:

1. عيسى مومني، صحو الكلام- زوايا مضيئة في حياة طالب علم وأستاذه، دار العلوم للنشر والتوزيع، الحجار، عنابة، الجزائر.
2. عيسى مومني، رائحة خبز الصباح- حفر في خفايا الزوايا، سلسلة الكلم، المعارف للطباعة، ط1، ماي 2018.
3. سعيد بنكراد، حاشية على "اسم الوردة" أو آليات الكتابة، مجلة علامات، موقع سعيد بنكراد على الشبكة.
4. عبد الجبار ربيعي، أركيولوجيا القصيدة العمرية، الكتابة معنى... قراءة في رواية (رائحة خبز الصباح حفر في خفايا الزوايا) للدكتور عيسى مومني، شبكة أصوات الشمال.

5. سناء سلمان عبد الجبار، رمزية العنوان في كتب الربيعي، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، المجلد14، العدد3، نيسان 2007.
6. جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، المجلد25، العدد3، الكويت، 1998.
7. محمد فكري الجزار، العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، دط، 1998.
8. زهرة مختاري، خطاب العنوان في القصيدة الجزائرية المعاصرة- مقاربة سيميائية، رسالة ماجيستير(مخطوطة)، جامعة السانية، وهران، الجزائر، 2012/2011، ص08.
9. Charl grifel, production de l’intérêt romanesque, ed mouton, The haye, paris, 1973, p171).